

# يوم مصري جاف .. محمد النبي قنديل قصة بقلم

الصباح ...

حُفُول القطن شاسعة ومضيئة .. وغياشي هائج وسط البنات ..  
زعت خضرة . نزعت نهدها اللين المتكور من بين اصابعه ..  
- اصرخ .. اجمع عليك البلد والله ..  
ضحك غياشي .. انسال خيط رفيع لزج على شفته السفلى ...  
رقت هي احد اعواد الحطب مهددة :  
- ساقول لايبيك .  
ضحكت بقية البنات ، لكنهن ابتعدن حذرات ..

الشمس مائلة ناحية الشرق ، تنرف صهدا وحنينا ورغبة .  
ينهض صبح اليوم الغريب ملونا بكل احزان الايام الفاتنة . بدريسة  
تسير وحدها على الجسر الترابي البلبل .. شاهدت الاب المعجوز  
جالسا تحت شجرة الجميز . على كتفه « الحرام » الصوفي الثقيل .  
يخفي تحته وهن البن وجروح الايام . وجهه متفضعن وشارد . الافق  
بعيد مشبع بالانتظار والزرقة . لم تكن المرأة المعجوز بجانبه . لعلها  
ذهبت ل قضاء حاجة ثم تعود . يلتصقان بما ويشردان بعيدا ..

سارت بدريسة . هم الصباح ثقيل . البيت مقفر . سرير الزفاف  
ما زال يحتفظ بنصاعته صورة الفانب شاحبة فوق الجدار . الجاموسة  
العشر ترامق الجميع في حذر وتوارى كلما اقترب احد من سباب  
« الزريبة » .. والحمام يهدل في اسف .. بدووووور . بدووور . الكلاب  
منزوية بعد ليل ارق . وضعت بدريسة يدها فوق ظهر الجاموسة .  
احست دفئها الخصب يتسرب داخلها . فردت اخر ما وصلها من  
خطابات . كانت تعرف القليل من الكلمات . لمحت اسمها في السطر  
الثالث والعاشر . ثم لمحت مع اخر كلمة . ولم تفهم غير ذلك  
شيئا . ثياب غياشي ملقاة في الركن . يرعى فيها قمل الصيف  
الباهت . تنقل هكذا دون مساس حتى ياتي غياشي . يلوكها فسي  
الماء يعصرها حتى توشك على التمزق . تقوش الزفاف فوق الجدران  
لكن حناء العرس وفرح القلب ذهبا بلا عودة ..

قال الرئيس عبدالمنعم ..

- يوم اغبر .. لن نجتمع شيئا في نهارك المهيب ..  
التي غياشي البنات خضرة فوق الارض . برك فوقها . ادخل يده  
سريعا في فتحة الثوب العليا . جذبه الرئيس عبدالمنعم بعيدا . نهفت  
البنات في تكاسل . لم تتكلم لكنها كانت على وشك البكاء . سبقتها

بقية البنات وبدان في جمع صفوف جديدة .. ابتعدا معا . لم تبال  
او جاء لو ذهب لو حتى برك فوقها . كان صدرها ممتلئا بالجروح  
الصغيرة والكيماوي يلهبها .. واصل الرئيس عبدالمنعم ..  
- يا غياشي عيب . الانفار يا اخي . العام القادم لن نجد من  
يجرؤ على الجمع عندكم ضحك غياشي . اشار الى فرص الشمس .

- بز البنات . بز البنات .. هيه ..  
ابتسم عبدالمنعم لكنه ظل متضايقا  
- عيب والله .. اخوك لم يكن مثلك ابدا  
وقفت بدريسة على رأس الحقل . اشار الرئيس نحوها ..  
- آه يا ست بدريسة . غياشي لا يريد ان يهدأ ..  
تراجع غياشي . شملت جسده الحقل رعدة طفولية خانقة . وعين  
بدريسة عليه قبي دهشة .. واستغراب .. كل شيء كما هو . القطن  
والحقل والبنات وغياشي واحداث كل يوم .  
- يطارد كل بنت .. تصرفي معه ..

افلت غياشي من يده . جرى سرعا واختفى بين الدغل الابيض .  
ضحك عبدالمنعم بصوت اجش .  
- عيل والله .. عيل  
ضحكت دون بهجة ..  
- بخاف منك . جد والله ..  
تكلت للمرة الاولى منذ الصباح ..  
- لا ادري .. يخشى كل شيء .  
- كذا .. يخشاك انت فقط . لا يخشى آخر في البلدة كلها ..  
حتى ابوه ..

دون وعي قطفت يدها بضمها من زهور القطن . ضمتها لصدرها في  
بطء . كان عبدالمنعم يتكلم ويياض الزهر الحزين يشدها بعيدا الى  
وشي البحر الساجي على رأس الفيظ . والسريير الخالي في الليل  
الطويل ..

- حزينه يا ست بدريه ..  
اصبح قريبا منها ..

- الم تصلكم اخبار بعد ( اشار في اتجاه غياشي ) .. اخوه  
والله لا يدري باي شيء . قالت لنفسها غياشي اخو يوسف . يوسف  
ذهب وغياشي باق . القرية برجالها وبيوتها وبهائنها ويوسف غائب .  
غياشي اهيل يخشاني ويخشاه الف رجل . وعبدالمنعم يتكلم ..  
- ظلمت نفسك بهذا الزواج يا ست بدريه ..

التفت اليه . ملامحه تشكل داخلها . الوجه وانشاب والطاوية .  
الاسنان الصفراء من آثار العسل والشاي الثقيل . ملامح يوسف باهتة .  
تهب ريع البوار عبر زهور الفطن واشواك الحطب . يد عبد المنعم  
تقبض على ذراعها . تلف حولها . توشك ان تلمس بظهرها حافة النهدي .  
ارتعدت لحمها بتضغط والكلمات تتحول الى نبض لاسع ..

- زمان يا ست بدرية .. كنا كلنا صفارا ..

كفه فوق شعرها . الشمس غامقة . الانفار يتضاحكون بعيدا . عين  
الجاموسة العشر تمتلىء خوفا . الاب المجوز يحلق في الافق ويوسف  
هل حلق شاربه كما قال في المرة الاخيرة .. اي نوع من النساء  
يعاشر ..؟ .. نزعتم نفسها واجهته بشراسة ..

- الله يا ست بدرية

جرت . تخزها العيون والاشواك . تلهث والحقل ابيض كالسهم .  
تلاحقها الاسنان الصفراء والشارب الكث . ماذا يجدي الجري عندما  
يخط ليل الشتاء الطويل ..؟ .. تكسرت الاعواد تحت قدميها .. والنهر  
ساج كالعلم .. تهب رائحته الندية . تراجع كل شيء خلف ظهرها اصبح  
بينها وبين الجمع مسافات لا حد لها من الاشمزاز ..

على حافة النهر هدأت فجأة . استكننت جنب صفصافة وسط  
نخل من الحشائش تحجب كل شيء عن الطريق . الماء يسرح ناعما  
يتشعر عن هوجات بطيئة متكررة . لم تصد بحاجة للبقاء . ذات  
لحظة سوف يأتي يوسف من خلف انحناء النهر . انتظرت طويلا  
يا بدرية . البسي قميصك الاحمر . واغسلي كعبك وهلمي للعشاء ..  
كانت الريح تغمغم .

سيأتي ولن يمود ثانية .. ثانية .. ازاحت طرحتها . فكت مندبل  
الراس . انفرد شعرها الطويل الناعم . مالت براسها كفضن  
صفصافة لين وغمسته في النهر . تصاعدت داخلها نشوة مرتعدة .  
ازداد تنفسها وظلت تحلق في الماء وتشم رائحته . وهي صفيورة  
ضربتها امها اكثر من مرة . لم تنس بعد طعم المتع الخفية الصفيورة .  
والنهر يسرح بعيدا ضاحكا . ترفع راسها . تزج الخصلات المنهدلة  
ويتساقط حب المطر . عصرته . كومتها فوق ظهرها . واجهتها السماء  
الواسعة والسحب الهشة .. قالت .. سوف يأتي يوسف راكبا  
سحابة ..

تبدد السكون . صوت نشيج خشن . رفعت راسها . غباشي  
ينخط وسط الحشائش . فوق وجهه غبار الكيماوي الابيض القاتم .  
يدعك عينيه ويكسي بصوت عال . اقترب منها . نهضت واقفة ..

- ولد يا غباشي .. مالك يا ولد ..؟ ..

توقف خائفا . لم يحدد مصدر صوتها . اقتربت منه . امسكت يده  
.. مالك يا ولد .. هه .. نهته بصوت باك :

- البنت خضرة .. الكيماوي ..

تالم لدرجة انسته خوفه الغريزي . كانت متبرمة صخرة .

- حمار وبغل .. وتترك البنات يفعلن بك هكذا ؟

ازدادت حدة بكائه .. قاده النهر .. نهته :

- والنبي لا .. البنت خضرة ..

ضغظت راسه . غيبته دقيقة في الماء . رفعه فزعا . حاول  
التملص ولم يستطع . انفجرت هي ضاحكة فجأة .. ضغظت اكثر من  
مرة .. وهو يغمغم لامها :

- والنبي لا .. بدرية لا ..

يدها تقبض على شعره . تحس خشونته . يسري داخلها بضر جارج .  
هذا الولد الاهبل القدر الرائحة . لو انها تملك ان تلقيه في النهر  
يتخلص جسده من هذه الاوساخ وتلوث بلاهته .. ظلت تضغط راسه  
وتضحك . هذا الانف انف يوسف . نفس انف المجوز . تركته .

ارتد للخلف غير مصدق . تخلصى وجهه من الكيماوي . بدأ نظيفا  
كما لم تره ابدا من قبل .. فتح عينيه .. كأنما كانت ترقب هذه  
اللحظة . تأملت سوادهما الداكن اطراف الرفوش القصيرة ..  
الحاجبان يكادان ان يتصلا والشفة المتديلة بلا لعاب هذه المسرة  
وصوت النهر مبوحا عييقا متواصلا . وحقول الفطن  
تشابك متعانقة . وضعت يدها فوق وجهه .  
تحسست آثار الماء . بحثت عن كلمة تقولها .. راقبها خائفا مبهورا ..  
انت يا ولد يا غباشي . ماذا غير طعم اللحظة ؟ الصفاقة تغمغم .  
الماء ينسرب خلال اصابعها .. جلد وجهه دافئ .. حي .. جلد يوسف  
بارد كاللوت . وهي لا تهرب . تعطي نفسها فرصة تفكير اطول ..  
قال الولد غباشي فجأة ..

- بدرية .. ابويا .. امي .. والبنت خضرة .

شفتها فوق جلد وجهه . تنقبضان عليه . غمغمت دون ان تفلت  
ثمة الجلد . يا اهبل يا ابن الكلب . يا اهبل يا ابن الكلب . انفاسه تدخل  
انفها . رائحته ثقيلة تملأها حتى النخاع . صدره ناعم . ليس به شعر  
لكنه محدد العضلات . تحسسته باصابعها وباطن كفها .. نبض  
قلبه .. رفع يده . وضعها فوق كفها . ثقيلة لكنها تدوب تحتها .  
تتراخي . ما راودتها هذه الخواطر يوما ولا تخيلت هذه اللحظة .  
لكنها كانت في اعماقها .. تنمو عبر ليالي الوحدة ولحظات الجفاف ..  
ادخل يده في فتحة ثوبها . قبض على نهديها المتكور في فرج . لم  
يصدق انها لا تقاوم . ولن تهرب . اعطته الطراوة والنعومة الدافئة  
احساسا غامرا بالبهجة .. امسك الحلمة المتصلبة المشدودة . فركها  
بين اصابعه .. انتفضت . نهضت واقفة ..

النباتات الشيطانية على الشاطئ تكون سياجا عاليا .. الارض  
ممتلئة بالفواقع الصالحة وقطع الزجاج الصفيرة اللامعة .. والطائر  
الوحيد الذي كان يقف فوق غصن الصفاقة شاهد ما جرى ثم  
اندفع وسط قرص الشمس . دون صوت .. دون ان يستطيع البوح ..  
وشيش ماء عاقر متجهج . منحن غامض . وشفتها تفتران عن ابتسامة  
غريبة . خلعت ثوبها . فردته على الارض . خلعت قميصها . اصبحت  
عارية تماما . جسدها الابيض فارغ يتضوع في الشمس . فكر  
غباشي .. عندما تكون مرتدية ملابسها تكون تحيلة . مد يده  
في تبيل .. تحسس فخذه صاعدا الى اعلى .. مستديرا مع  
انحناءاته . ادرك انها تختلف تماما .. عن جاموستهم العشر وعن  
الحمار .. وعن البنت خضرة .. نامت على ظهرها . اشتم رائحة  
جسدها الحار مختلطا برائحة البحر .. دون صوت ايضا . خلع  
جلبابه ..

لو مر عابر على جسر البحر .. فلاح او دابة لراى جسديهما . لانه  
في تلك اللحظة ذهب كل شيء بعيدا . خفتت انفاص الارض المتداخلة .  
سكن الماء سكونا مطبقا . كفت الصفاقة عن الوشيش . وغباشي  
يفرق في جسدها .. يكتشف كنوزه .. يحط .. ويرتاح .. من اجساد  
نساء القرية المتعبة التي افترسته قديما ولم تطه شيئا . الاطفال  
يسمعون خلفه يقدفونه بالحجارة .. جر البهائم الابله . وبطن بدرية  
مثل قبة السماء .. يضع اصبعه في صرتها ويديره .. ثم يلتصق  
البطنان .. يلتحمان في عرق ساخن . فمها ينفتح وينفلق طالبا  
المزيد . جسدها يفيض عليه يجمله طوعها . كانت فوقه وكانت تحته  
وكانت بجانبه .. وكانا بعيدين عن الجلاب وجسدهما بلون تراب  
النهر . تخزهما الفواقع الصالحة وقطع الزجاج .. يلوي شعرها على  
يديه .. يصعد ويهبط كأنما الشمس تتراجع .. بدأت تضحك ..  
ضحكا ناعما منهدلا . خفت حدة اللهاث . وبدأ يمارسان طنوس  
اللعبة في انسياب عذب . كان ما يزال هناك وقت للبحر والصفاقة

الآن لو جاء يوسف واخذني في حضنه لا اراه . لا ارى ان كان يبكي  
ام يضحك ..

الام صامتة .. تعشق كتلة العظم . وسط هذه اللفة من الشياح  
الفضفاضة . تعشق ايامه القربة والبعيدة . عندما كان يخطو تهتز  
اركان البيت . وعندما يعلو لهاته وانفاسه المتحجرة .. لان الايام  
التي مضت لا تعود . ولانه رآها ذات شهر بعيد اسمه يؤونسة .. كانت  
مياه النيل فيه داكنة .. داكنة كالدم .. ثم تفيض كالحيض .  
تسللت اعواد الارز الخضراء . ترتجف تحت الشمس القاسية . كان  
الليمون صغيرا .. والنحل لا يكف عن الحركة .. والحرارة تتفجر  
في كل الابدان . والقمر كان بهيجا لكنه ما لبث ان تفضن وركبه الهم  
وسط السماء السوداء ..

يمر العمدة . يمر شيخ البلد .. والفجر . ولا احد يلقي السلام.  
ولا ولد ولا ظل . لم يعد احد يصدق ان يوسف سوف يعود ..  
وسيعاود زراعة القطن .. وتكون شجيراته اعلى ما في البلد ..  
- سوف يحضر يوسف الدواء ..

#### قالت العجوز

- اجل .. سيحضر الدواء .. وتعود سليما معافى .  
- ليته يعود قبل شهر طوبه .. قد لا يمر علينا هذا الشهر  
ونحن احياء ..

رغم ان ما زرع في هذا الشهر لا يخيب . مات طفلها الثالثولم  
تعقب .. عبرت ريح العقم القربة تزوم رحيلا وموتا .. يومها كان  
يوسف يستعد للسفر الطويل . خلع الجلباب الازرق . رمى الفاس .  
وضع يده فوق كتف غياشي واوصاه .. لكن غياشي ضحك ولم يفهم  
شيئا .. لم يشغل البرتقال . لم تشغل القشطة . وكان القطن بذورا  
ضائفة يتيمة في رحم الارض انجائسة الشبقة . قال شيخ الجامع .  
في مثل يومنا هذا مات عمر بن الخطاب وختمنا عامنا الهجري .  
جعله الله مغفور الذنوب . نبتت زهور الطماطم ورحل يوسف .. حمله  
القطار القريب الى بلاد اشد غرابة .. وعندما جاء هاتور كانت بديرية  
لا زالت تبكي . حلقت طيور السماء تحكي عن الوعد الذي اخلف .  
غرس الاب غصن صفصافة على رأس الحقل .. هذه شجرة يوسف حتى  
يعود فترخي شعورها الطوال على كتفيه . انتهى غياشي من زراعة  
القطن .. ازاحت بديرية الفبار من فوق اثاث انغرس للمرة العاشرة .

تركت السوير ذا اللادات الناصعة واصبحت تنام على الارض ..  
ملات اشتال البصل الارض حتى الافق . نصب الصيادون شبكهم .  
رف السماء ثم وقع ولم يات يوسف .. قالت بديرية : « القسمة  
والنصيب » . ذرات غياشي يفعلها مع الحمامة فارتجت بعنف . ظلت  
تقني حتى نظرت لها الام العجوز في شك وشعرت بديرية بالاشمزاز  
حتى من رؤيته . انهد حيل الاب العجوز تحت شجرة الجميز . سيأتي  
اليوم . اللحظة .. وجاء يشنس واهنا . بدت البلدة اشد كاسبة  
واصفرا . ازهرت النباتات الشيطانية على حوافي الترع والمياه  
الركدة الوانا وحشية صارخة . طن النحل يبحث عن غذائه الخاسر  
.. وفي كل مكان تفتحت اكاليل السنابل في بهاء لا حد له . رحلت  
بديرية الى اهلها وعادت بعد اسبوع . رأت اباه وامها واخواتها  
ولم تقص عليهم شيئا .. لانه لم يكن هناك ما يقال . حملت بغياشي  
يفعلها مرة اخرى فهضت في منتصف الليل وظلت تقني في الزريبة  
والجاموسة ترقبها حذرة . امتص الارز كل ما عليه من ماء . تفتحت  
ارحام الارض فجأة تفي بمواعيد غرسها .. وظل الافق البعيد موحشا :-

قال الرجل العجوز فجأة :-

- سوف يتوقف قلبي يا ام يوسف .. هل تسمعين اي خطو ؟

قالت بسرعة .. لا .. لا احد ..

والطيور العابرة ليشهدوا كل شيء ويكسوه شرعية غريزية . كانت  
تضحك لان طعم التراب البلب كان حلوا كذلك وخز القواقع وحفيف  
الاشواك .. وكان هو يضحك لانه وهو فوقها .. فوق اعلى كومة  
سباح في البلد . وقامته اعلى من المامور والعمدة وشيخ القفر . ولانه  
لا الاب الذي يذهب بصره . ولا الام المتفضنة . ولا يوسف لو جاء ذات  
ليلة . لا يقدر على انتزاع هذا الجسد الحي النابض من بخته ..  
اخذا يضحكان معا .. يتلامسان في نعومة .. والتصق الضحك  
بالتراب والماء . وبدأ الهواء يمر من جديد .. ولم يزل هناك وقت ..

ومن بعيد من فوق سطح منحني النهر الفامض .. انساب صوت  
اجش عميق ملامح مسافر يفني عن الزمن وفرقة الاحباب .. ملامح  
صميدي عجوز يأتي صوته منكسرا عبر موجات النهر .. توفقا عن  
الضحك .. انصتا .. قالت في خوف حقيقي ..

- يوسف ..

التصق الاسم ايضا بالماء والتراب . ازداد ارتفاع الصوت .  
تحول خوفها الى رعب غامر مفاجيء .  
- يوسف .. يوسف .. يوسف ..

ندم غياشي .. لم يكن يضحك . ولم يكن يتاوه . صوته غريب  
وحركته فوقها تزداد تشنجا . دوى الاسم يفمر كل شيء .. بلاوعي  
ظلت تردده وصوت الفرقة والزمن القادر يقترب . حاولت ان تدفعه  
من فوقها . تكف عن ترديد الاسم .. لكنه عاد يلهث كأنه كلب عطشان  
.. يدمم ويفرس اظفاره في لحمها .. يدعكها في الارض بقسوة ..  
صرخت .. رددت .. يوسف .. يوسف .. تعالت كل الاصوات . الملامح  
المسافر . صوت البنات . الانفار . وخرجت اظفاره ملوثة بالدم .  
نهض واقفا . رفع كفيه الى اعلى يريهما للشمس كان جسده فارعا  
قاسيا . زعق مرة اخرى ثم انطلق يركض .. عاريا .. وسط الحقول ..

✦

#### الظهير

في توت . يعتدل الليل والنهار . يزدهر القطن ويتفتق متوهجا  
ناصعا . تنمو عيدان الحلبة الخجلي . تطلق فحول الاغنام .. يحصد  
الارز . تتوالد الاسماك . يكثر الليمون . ويكثر الحزن ايضا ..  
في ظل شجرة الجميز العجوز - على الطريق - ما زال جالسا .  
ما تزال الام بجانبه ينظران لللاق البعيد دونما تحديد .. تاخذ الايام  
كل حين طابعا جديدا .. تتوالى روائح الزرع والقلع والحصاد ..  
والانتظار هو نفس الانتظار .

قال الرجل العجوز :

- انا بردان ..

احضرت المرأة عبادة اخرى . وضعتها فوق كاهله . ازداد انحناء .  
التصقت به مرة اخرى . سالها عما امامه . قالت لا شيء . عيدان  
الحطب الجرداء والارض الخالية تنتظر البرسيم .. سال ولا احد  
قادم .. لا .. لا احد قادم .. قال في تأكيد ..  
- حان ميعاد قدمه ..

قالت باسى .. حان ميعاد قدمه اكثر من مرة .. منذ ان ذهب  
لم يعد ..

غبار الظهيرة كثيف .. يشكل اطراف الاهل والاحباب . ويوسف  
بعيد . خلف افق يتراجع كل يوم . يقرب وسط الكلال . ذهب منذ  
زمن . في اول امشير . تماما بعد مولد النبي . لم تكن الذرة  
العويجي قد كبرت . لم يزرع اترع . لم تنتم بعد ازهاره القربية  
النافذة . شاهد اخر اعراس الاشجار .. امشير يا ام يوسف .  
خضرة وغيره بلا حد . امطار جارية كالدروع .. ورع كالوجد .. قال  
الرجل .

- الان .. لا ارى الافق . الان تنتهي حدود البلدة عند حافة التربة .

الثاوي . وبدأوا في رفعه . صدرت عنهم انات ضئيلة . احسوا فجأة كأنهم جرحى ينزفون منذ الصباح . وكان كل قرية دخلوها ، بطريق الخطأ ، تركوا فيها فطرات من الدم ..

حملوا الصندوق لمقدمة المعديّة . وضعوه فوق أحد المقاعد . جلس انسان على كل جانب . وجه الرئيس صلد . يتراقص لهب الصباح قريبا منه . يكشف عن لمعة العرق فوق التجاعيد الفائرة اطفالا السائق مصباحي العربة . ساد ظلام الموت الرطب . أصبح الجميع فوق المعديّة . لم يتحرك الرئيس . ظل مستندا فوق الدفة . جذب احد الجنسود « الجنزير » البلبل .. ارتفع صوت آتينه . وتحركت المعديّة نحو الشاطئ الآخر ..

تفسر ايقاع كل شيء . الجنزير .. همهمات الماء الكثيبة . تكافأ ذرات الظلمة . هبطت من اعلى روح بريّة موحشة فردت جناحيها وحطت وبدأت تراتيل النعي الطويل ، تتشابك مع الريح وتمد نسيجها حتى ظلمة الشط الآخر . هبطت فوق جراحهم كاللصيح أصبحت التيارات الباردة فاترة ممضوفة . كرجيع البكاء والتاوه .. سال الضابط سؤالا متقطعا لم يفهمه احد . لم يكن الشاطئ يقترب فقط . كان يطبق . يزهم اليه . قال الضابط خائفا - ما هذا - ؟ .

اصطدمت المعديّة بالشاطئ الآخر . ارتجفت كل شيء . نهض الجنود قال الرئيس :

- اهل البلد .. في انتظاركم منذ الصباح ..

اكتشفوا في الضوء الواهن عشرات الوجوه .. مترامصة كاحجار قاع البئر . تخفي الظلمة كل ما عليها من تعبير الكراهية والخوف . بلد غريب . نفس واحد . هم واحد . توقف الضابط والجنسود صامتين . وظلوا هم ايضا صامتين . واصبح كل شيء قائما ثقيلًا . انحنى الجنود على الصندوق يحاولون رفعه . انفجر الجو فجأة بالهمهمات . اطلقت امرأة ذات صوت نحيف حاد نعيها الاول :

- يا خويا ..

شحن المكان بالمفغمات والتاوهات والبسلة وادعية الاستغفار . هتف الضابط في عصبية :

- ضوء .. اي ضوء

انسلت من بين الجموع امرأة سوداء . خرت على الصندوق وهي تتشنج . اوشكت أن تسقطه من الايدي . ازاها الجندي وقد فقد توازنه . قال نفس الصوت الحاد البعيد :

- يا خويا .. يا شمس وقمر ..

قال شيخ ضخم ملتج :

- انا العمدة . تفضل يا حضرة الضابط تأخرتم ..

الضابط يتكلم مرعوبا . الجنود يحملون الصندوق والاهالي يمجون حولهم بحركة غريزية دون هدف .

زعق الشيخ القفر ..

- وحدوا الله يا بلد !

قال الضابط

- ابن ابوه وامه ؟

اشار العمدة نحو الظلام .. هناك .. بدأوا في اشعال اصواء الكلوبات . تراجمت الظلمة ببطء . بدت الموجة اشد حزنا وتعاسة .. فكر الضابط . ليل البلاد القريبة اكثر قوة .. اشار العمدة نحو ابويه . الام العجوز والشيخ القفوس المهتم يحاول عيشا الانتصاب فوق عصاه تناول الضابط اليد المروقة . هزها ببطء حذر .. قال :

- قلبي مكمما .. كان من احسن رجالي ..

ثم تكلم كلاما غريبا . عن بلد اسمها مصر . وعن ارض لا تموت . والهة قدامى تطلب القرابين واعراس الدم والخضاب .. تكلم عن رفعة

لكنها احست أن هناك شيئا ما .. لعله يتخلق الان فقط من شواطئ الشمس وغبار الظهيرة .. من الحقل البعيد تناهت اصوات وضحكات . هبط الهواء الحار . أصبح ثقيلًا .. تقترب الاصوات بلا تمييز . هذه اللحظة يهتز الافق وتتداخل الوانه .. قال :

- انه يوسف .. احس انفاسه ..

حاولت المرأة ان ترد . لكنها كانت مشدودة بكيانها نحو الطيف المجهول . تسمع كلماته ولا تفيها .. تنفوس داخلها ابرا محماة .. الاب يهتف بصوت عال . حاول النهوض لم تساعده الام . سبها وسب كل شيء . اشار الطيف اشارته الاخيرة المتتابعة ثم اختفى خلف حاجز الحطب .. وقال الاب :

- لم يكن يوسف ..

وانفجرت الام في البكاء . وكانت تحسب أن كل ما فيها قد جف تماما . لكن الدموع انشالت ثانية ..

### الليل ...

وضع الجندي كفيه حول فمه . زعق ..

- يا ريس .. س ..

تكسر الصوت فوق وجه الماء المتفصن . استقى الليل الداكن الصدى . الضابط يتف جنب العربة . عصيبا لحد الانهالك . فشل في اشعال سيجارة . توهج الضوء لحظة كاشفا عن نباتات الشط والشجر ووجه الجندي الذي بجانبه .. وعاد الصوت المبحوح ..

- يا ريس .. س .. س .. س ..

زام الموتور . رفع الضابط يده خشية أن تتحرك العربة فجأة .. لكن الجندي السائق اشعل المصباحين الاماميين .. انفرد الضوء فوق سطح الماء وكانت السماء والنجوم والشط الآخر بعيد تماما .. الجندي يردد عبر الهواء والصدى :

- يا ريس متولي .. يا ريس ..

الضابط .. اربعة جنود . السيارة .. السائق . وصندوق طويل ملفوف . ورحلة مضنية منذ الصباح . بلاد تلد بلادا . وارض شراقي على امتداد البعد . والسيارة تلهث بهم . تتوقف على طرف كل بلده . يصدم ناسها السؤال ويهدم الجنود الجواب . شرقا وغربا والموت واحد . سبحان الذي وهب وسبحان الذي سلب . ومن الشط الآخر تعالي الرد يهزق انه لام ..

- جالاي ..

تهتد الضابط بارتياح . ( اطلق الجندي الذي بجانبه سيجارة ) . تراجع الجندي الآخر من امام الشاطئ . نظر للضابط قال تمام يا قندم ، دون صوت ارتفع الماء من الجانب الآخر .. وبدأ «جنزير» المعديّة يزوم ... تحركت كتلة الظلام . شاهدوا الصباح الزيتي يرتعد فوق قمته ولا يكشف شيء . بعثت ضجة الماء بعض المؤانسة في الجو الثقيل . صوت الرئيس المعجوز يردد ادعية مجهولة .. ببطء دخلت المعديّة منطقة الضوء . بان خشبها المتآكل والطحلب الاخضر جائم فوقه ، بانت ايضا الكلمات الركيكة الخط فوق مقدمتها «سيروى بامر الله» ارتفعت منطقة الضوء حتى شملت جسد الرئيس الفارع وهو واقف جنب الدفة . يحلق فيهم بقسوة هنا هيه . تقدم الضابط حتى اصبح في مواجهته . مسح عرقه . لبس الكاب واعتدل .

قال الرئيس دون ان يبالي به :

- تأخرتم . كنا في انتظاركم منذ الصباح

اشار الضابط للسيارة :

- ضلنا الطريق .. دخلنا اكثر من قرية ..

تراجع الرئيس . اشار الضابط للجنود . ذهبوا المؤخرة السيارة . اشعل اكثر من عود ثقاب حتى صعدوا . احاطوا بالصندوق الوحيد

الموت وغناق الارض . والبذور الضئيلة حين تطرح اشجارا معمرة ونخلا . وعن الالهة المسحورة عندما تنهض بعد الظلام ، لتبعث الشروق فوق جبين هذا البلد الذي يدعى مصر .. قالت المرأة العجوز:

- انه لا يسمع يا بني .. لا يسمع ..

تقدم حملة الكلوبات المسيرة واصرا اهل البلد على حمل الصندوق بعد ان كشف الضوء عن الوانه الثلاثة .. وسار الجميع في طريق المقابر خارج القرية .

قال العمدة :

- انت والجنود ضيوفي الليلة .

ثم يرد . كان تسلا . انكفا الاب العجوز . اعانته الام العجوز على الوقوف . واصلا السير .. فكر الضابط ثانية . انه لا يدري بالفعل حقيقة ما حدث . بدأ ايقاع اللولوات يشق الليل وينشر ظله البدائي فوقهم وفوق الزروع ..

- ابكي عليه سنة .. وبعد اثنى سنة

وطول العمر لا تشوفي هنا

اقترب فلاح غريب الهيئة .. الوحيد الذي يرتدي جلبابا ابيض ، سال الضابط باهتمام :

- هل مات في الحرب حقا .؟

التفت الضابط اليه فرأى :

- ماذا ؟

لكنه اخفى وسط كتلة الرجا . فكر الضابط : انهم يحملونني ذنبه . قال العمدة ينهي الحاحه :

- آسف ، لا بد ان نصح . هذا ليلة .. هل المقابر بعيدة ؟

الجنود الثلاثة حيارى كاليتامى . يسرون وحدهم احيانا . وحيانا وسط الجمع الحاشد ، صامتة كالموتى . وحيانا يتكلمون كأنما يدافعون عن قضية خاسرة .

- كان زميلنا .. وكان اما : ميل .

وكان يوسف بكائيه حارة ، وروحاً بريه قلقة ، وصندوقاً على طريق معقر .. وكان سؤالاً عشرينات القرى الفقيرة الجائعة .. ورحلة بلا عودة ، كان ابا يتكفئ ، وسريو زفاف خاليسا . واما تتربح خطى الموتى . نظر الضابط نائمة الاب جوز الذي كان يقول :

- اود الجلوس قليلا . بردان . غطيبي ..

اشاح الضابط بوجهه .. حدق في العمدة بصلابة .. لم يتوقف عن الكلام والمجاملات .. اوشك ان صرخ فيه .. واصبح البحر بعيدا خلف الرجال التمساء والتوا امدبات والمقابر لم تظهر بعد .. قالت الام العجوز :

- لا تقف - سنعود معا .. سنموت معا ..

نظر الضابط فرعاً للعمدة :

- هل كان ابنيهما الوحيد ؟

اجاب بلا ميل :

- هناك ولد اخر .. غباشي .. اهل .

التفت للخلف فلم يجده .. قال للجنود :

- لولا ستر الله لنهب كل شيء .. لكنه كان بطلا ..

المقابر فوق ربوة عالية .. احمسوا بالفضالة وهم يصعدون المنحدر . وقف ثلاثة من الحفارين . حدقو فيهم بعيون فارغة ..

سكون ثقيل مرة اخرى .. وضع الرجال الصندوق جنب الحفرة وتصلبوا .. كفت النسوة عن النواح وكفت الريح عن الهبوب .. تقدم شيخ عجوز مهلهل الثياب .. اوقفه الصبي الضامر الذي كان يقوده امام الصندوق .

انتظم الضابط والعمدة والجنود و يضع من الاهالي صفا .. وارتفع صوت الشيخ الواهن بالتكبيرات .. تكبيرات متتابعة تبدو بلا فائدة احيانا . ثم سكن هو ايضا . رفع قامته وظل يحدق عبر التل والمقابر . لعله كان ينتظر شروقاً او بمثا . ثم انهى الصلاة بسرعة متجهمة . وعندما هبط الحفار واستعد للتلقي اقتربت اللحظات الختامية ..

ارتفع الصوت الناعي الغريب يبكي كل الشواهد وكل القبور .. يوسف يا ضيا العين .. يا ضيا العين .. والشيخ الضرب يحاول رفع صوته بالوصايا الاخيرة .

- واخبرهم يا عبدالله .. انك عشت مسلماً .. ومت مسلماً ..

واخبرهم يا عبدالله ان هناك الها واحداً .. واخبرهم يا عبدالله .. يا عبدالله ..

وضاع كل شيء ..

لمس العمدة ذراع الضابط :

- هذا هو اخوه ..

اشار نحو قبر بعيد .. بدأوا يلغون التراب في الحفرة الفارغة . بكى احد الجنود فجأة بحرقه وبصوت عال .. ربت واحد من الاهالي فوق كتفه . نظر الاب العجوز حوله مستغرباً وطلب سبب الانصراف للمرة الاخيرة .. ملات الام قبضتها بالتراب .. رفعتها عاليا كأنما تشهد الجميع .. سقط فوق رأسها .. سقط فسوق رأس شيخ الففر . نفذه وهو يتمتم بكلمات الاستغفار . ونظر الضابط نحو القبر البعيد . كان هناك شخص ضخم جالساً .. يبكي في هسترية عالية . يهش التراب .. يلوذ الصبار .. وكان عارياً تماماً ..

محمد المنسي قنديل

القاهرة

## روايات وقصص

من منشورات دار الآداب :

|                      |                   |
|----------------------|-------------------|
| طواحين بيروت         | توفيق يوسف عواد   |
| اولاد حارتنا         | نجيب محفوظ        |
| الحي اللاتيني        | سهيل ادريس        |
| اصابعنا التي تحترق   | » »               |
| الخدق العميق         | » »               |
| رحيل المرافئ القديمة | غادة السمان       |
| ساعات الكبرياء       | ادوار الخراط      |
| العيون               | سليمان فياض       |
| احزان حزيان          | » »               |
| الزحام               | يوسف الشاروني     |
| الحزن يموت ايضا      | يوسف شرورو        |
| زورق من دم           | » »               |
| فارس مدينة القنطرة   | عبدالسلام العجيلي |
| ثم تعود الموجة       | ديزي الامير       |
| عن الرجال والبنادق   | غسان كنفاني       |
| رحلة الخفاش          | محمد رؤوف بشير    |
| الارض حبيبتي         | عبدالكريم غلاب    |
| حكايا للحزن          | اديب نحوي         |
| جوميبي               | » »               |